



Uluslararası Sempozyum

International Symposium

المؤتمر العالمي

3-5 Ekim - October 2004 Istanbul / Turkey

٣-٥/١٠/٢٠٠٤ استانبول - تركيا

المؤتمر العالمي السابع  
لبديع الزمان سعيد النورسي

# ممارسة حياة ايمانية فاعلة

في سلام ووثام في عالم متعدد الثقافات  
من خلال رسائل النور

الطبعة الأولى

١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م

Ekim 2004

الترقيم الدولي

ISBN: 975-269-043-2

شركة نسل للطبع والنشر والتوزيع

## حول الإنسان في المنظور النورسي

أ.د. عماد الدين خليل  
كلية الآداب - جامعة الموصل  
العراق

[ 1 ]

يصعد بنا النورسي في " كلماته " باتجاه " الإنسان " .. تأخذنا جمالياته إلى ابن آدم، سيدّ المخلوقات وأكرمها، والمقصود من إبداعية الخلق، فتفرش له المساحات العريضة، وتجول الكاميرا - مرة أخرى - لكي تضيء اللمسة الجميلة، وتأخذ اللقطة المبدعة، وتتناوب في خطوطها ومساحتها وظلالها جماليات الحسّ والروح والوجدان.

ابتداءً، فإن الوظيفة الجمالية لمي إحدى مهمات الإنسان في العالم " فما دام ابن آدم يحكم في شتى جهات هذه الأرض .. ويتصرف في أغلب مخلوقاتها، مسحراً أكثر الأحياء له، جاعلاً أكثر المصنوعات تحوم حوله وفق مقاييسه وهواه، وحسب حاجاته الفطرية، وينظمها ويعرضها ويزيئها، وينسق الأنواع العجيبة منها في كل مكان، بحيث لا يلفت نظر الإنس والجن وحدهم، بل يلفت أيضاً نظر أهل السماوات والكون قاطبة، بل حتى نظر مالك الكون، فنال الإعجاب والتقدير والاستحسان، وأصبحت له - في هذه الجهة - أهمية عظيمة وقيمة عالية، فأظهر بما أوتي من علم ومهارة أنه هو المقصود من حكمة خلق الكائنات وأنه هو نتيجتها العظمى وثمرتها النفيسة، ولا غرو فهو خليفة الأرض وحيث إنه يعرض صنائع الخالق البديعة، وينظمها بشكل جميل جذاب في هذه الدنيا، فقد أُجِّلَ عذاب عصيانه وكفره، وسُمِحَ له العيش في الدنيا وأمهل ليقوم بهذه المهمة بنجاح" (1).

إننا هنا بازاء غنى ملحوظ في المفردات ذات الدلالة الجمالية .. مثلاً : العرض،

التزين، التنسيق، الأنواع العجيبة، الإعجاب، التقدير، الاستحسان، الصنائع البديعة، التنظيم، الشكل الجميل الجذاب.

وهو - بالتأكيد - ليس جمالاً مقصوداً لذاته، إنما هي الأدوات التي يصعد بها الإنسان إلى أعلى .. دائماً إلى أعلى .. المكانة التي تليق بمقامه المتميز .. وبدون المحاولة، أو بعيداً عنها، فإن الإنسان سيتعرض للسقوط .. وهو سقوط على كل المستويات، بما فيه المعطى الجمالي نفسه.

صحيح أن الإنسان، في المنظور النورسي، والإيماني عموماً، يمارس وظيفة جمالي-ة، لكن هذه الوظيفة ليست نهاية المطاف، وإنما هي فرصة للتحقق أكثر فأكثر بالسوية المرجحة للإنسان، والتي بها يصير الكائن المتفرد الذي يسود الخلائق، ويتميز على العالمين، ويمسك بزمام المصير .. إنها المهمة الجمالية التي تنطوي في نهاية الأمر على بطانتها الروحية والتي تتجاوز الحسّ القريب إلى ما وراءه .. والشكل إلى المعنى والمغزى، والتعدّد إلى الوحدة، والموقوت الفاني إلى عالم الدوام والخلود .. يقول النورسي: " الإنسان ثمرة شجرة الحلقة، فهو كالثمرة أبعد شيء عن البذرة، وأجمع لخصائص الكل، وله نظر عام إلى الجميع، ويضم جهة وحدة الكل، فهو مخلوق يحمل نواة القلب، ووجهه متوجّه إلى الكثرة من المخلوقات، وإلى الفناء، وإلى الدنيا، ولكن العبادة التي هي جبل الوصال، أو نقطة اتصال بين المبدأ والمنتهى، تصرف وجه الإنسان من الفناء إلى البقاء، ومن الخلق إلى الحق، ومن الكثرة إلى الوحدة، ومن المنتهى إلى المبدأ ". ويتساءل النورسي: " لو أن ثمرة قيمة ذات إدراك أو شكت على أن تكون البذور، تباغت بجمالها ونظرت إلى أسفل منها من ذوي الأرواح، وألقت نفسها في أيديهم أو غفلت فسقطت " .. ثم ما يلبث أن يجيب:

" لاشكّ أنها تنفتّت وتتلاشى في أيديهم، وتضيع كأية ثمرة اعتيادية، ولكن تلك الثمرة المدركة إن وجدت نقطة استنادها وتمكنت من التفكير في أنها ستكون وساطة لبقاء الشجرة وإظهار حقيقتها ودوامها عما تخبئ في نفسها من جهة الوحدة للشجرة، فإن البذرة الواحدة لتلك الثمرة الواحدة، تنال حقيقة كلية دائمة ضمن عمر باق دائم " ويخلص إلى القول بأن " الإنسان الذي تاه في كثرة المخلوقات، وغرق في الكائنات

وأخذ حبّ الدنيا بلبّه حتى غرّه تبسّم الفانيات وسقط في أحضانها، لاشك أن هذا الإنسان يخسر خسراً مبيناً، إذ يقع في الضلال والفناء والعدم، أي يعدم نفسه معني. ولكن إذا ما رفع هذا الإنسان رأسه واستمع بقلب شهيد لدروس الإيمان من لسان القرآن، وتوجّه إلى الوحدانية، فإنه يستطيع أن يصعد بمعراج العبادة إلى عرش الكمالات والفضائل فيغدو إنساناً باقياً<sup>(2)</sup>.

إن الإنسان إذ ينطوي على " الصنعة الخارقة للخالق الصانع سبحانه " والذي هو " أرقى معجزة من معجزات قدرته وألطفها " والذي أراده الخالق سبحانه " مظهرًا لجميع تجليات أسمائه الحسنى، وجعله مداراً لجميع نقوشه البديعة، جلّت عظمتها، وصيرته مثلاً مصغراً ونموذجاً للكائنات بأسرها<sup>(3)</sup>، هذا الكائن، بدون ما إضاءة إيمانية، لن يظهر على حقيقته، ولسوف يظل مطموساً عليه في العتمة، فلا يتكشف عن المعجزة، ولا يعكس التجليات الحسنى، أو النقوش البديعة للخلق الإلهي المدهش.

لكنه بقوة الإيمان، تتعین قيمته كإنسان، وتتألق مكوناته الجمالية ويتحوّل، بعد إذ لم تكن له أهمية، إلى مرتبة أسمى المخلوقات قاطبة، " حيث يصبح أهلاً للخطاب الإلهي<sup>(4)</sup> .

ليس هذا فحسب، بل إن حياة الإنسان في المنظور النورسي، هي فهرس لأسماء الله الحسنى .. ولائحة لمدرجات هذا العالم الكبير، وخريطة لهذا الكون الواسع .. وأحسن تقويم للكمالات الماثورة في الموجودات والمنشورة على الأوقات والأزمان .. لكأن حياة الإنسان " نقطة مركزية لجمع أنواع التجليات الإلهية المتجلية على العالم أجمع<sup>(5)</sup> .

وجمالية الوجود البشري لا تتحقق بأن يعمل الإنسان أشتاتاً وتفاريق، كل منها يصعد في الطريق، منفرداً بذاته، غير ملتفت للأخريات ..

لابدّ من التناغم والوفاق .. والصعود معاً إلى أعلى .. بقوة العبادة وقدرتها على المضيّ بالإنسان المتوحّد صوب الأهداف البعيدة .. فلو كان الإنسان مجرد قلب فقط، يقول النورسي " لكان عليه أن يترك كل ما سواه، بل يترك حتى الأسماء والصفات ويرتبط قلبه بذاته سبحانه، ولكن للإنسان لطائف كثيرة جداً كالقلب، منها العقل والروح والسرّ، كل لطيفة منها مكلفة بوظيفة ومأمورة للقيام بعمل خاص بها. فالإنسان الكامل .. يسوق جميع تلك اللطائف إلى مقصوده الأساس وهو عبادة الله، فيسوق

القلب كالفائد كل لطيفة منها ويوجهها نحو الحقيقة .. عند ذلك تسير الكثرة الكاثرة من اللطائف جنوداً في ركب عظيم وفي ميدان واسع فسيح .. " (6).

## [ 2 ]

يتحرك النورسي في ( كلماته )، وهو يتعامل مع جماليات الكائن البشري المتفرد، على مستويات ثلاثة : جماليات الصنعة ودلالاتها، الجماليات الحسيّة، وجماليات الروح والوجدان.

لنؤشر على كل واحد من هذه السياقات بما يسمح به المجال. وعلينا - ابتداء - أن نتذكر أن النورسي يرفض أشد ما يرفض الرؤية أحادية الجانب، وأن منظوره للظواهر والأشياء يدور دائماً لملاحقة كل جوانب الظاهرة، وخطوطها وخصائصها ودلالاتها. فمثلاً : " إن حسن الصنعة المتقنة في خلق الإنسان في أحسن تقويم، مثلما هو إشارة إلى الصانع سبحانه، فإن ما فيه من قابليات وقوى جامعة، تزول في مدة يسيرة، تشير إلى الحشر، حتى إذا ما لوحظ وجه واحد فقط بنظرتين، فإنه يدل على الصانع والحشر معاً " (7).

إن النورسي هنا يصوغ رؤية منهجية بمفردات واضحة تماماً : ملاحظة الوجه الواحد بنظرتين، ومن ثم فإنه وهو يلحظ حسن الصنعة المتقنة في خلق الإنسان، يلحظ أيضاً سرعة تفككها وتلاشيها .. لكي ما تلبث أن تمهد الطريق للحشر أو الانبعاث الجديد .. لا دوام للحالة الجمالية، ولكنه الغياب والظهور معاً .. إبداعية الخالق، والزوال، والتجدد ..

ومرة أخرى " إذا لوحظت ماهية ما هو ظاهر في أغلب الأشياء من تنظيم الحكمة وتزيين العناية وتقدير العدالة ولطافة الرحمة، بين أنها صادرة من يد القدرة لصانع حكيم كريم عادل رحيم، كذلك إذا لوحظت عظمة هذه الصفات الجليلة وقوّتها وطلاقتها، مع قصر حياة هذه الموجودات في هذه الدنيا، وزهادتها، فإن الآخرة تتبين من خلالها " (8).

ولطالما أكد النورسي على أن الإنسان " هو الثمرة النهائية لشجرة الخلقة، ومن المعلوم أن الثمرة هي أبعد أجزاء الشجرة وأجمعها وألطفها، لذا فالإنسان هو ثمرة العالم،

وأجمع وأبدع مصنوعات القدرة الربانية " وهو مع تأكيد هذا لا ينسى، لحظة، أن هذه الثمرة، لكونها من مصنوعات القدرة الربانية، فإنها ستكون " أكثرها عجزاً وضعفاً ولطفاً " (9) .. وتلك هي ملاحظة الوجه الواحد بنظرتين وفق المنهج الذي يلزم النورسي نفسه به فيتجاوز بذلك التورط بأسر الرؤية الأحادية التي تتعارض - ابتداء - مع الحقيقة الإيمانية، بل مع مطلق الحقيقة.

إن الكرم الإلهي الذي لا ينفد " يسبغ علينا نعمه وإحسانه فينورنا ويربينا ويحملنا " والحصلة النهائية ليست عبثاً، وحاشا لله " فالإنسان عبد الإحسان، وهو يسأل القرب ممن يستحق العبادة والمحبة، ويطلب رؤيته، لذا فكل منا يسلك حسب استعداده بجاذبية تلك المحبة " (10).

وبقوة الإيمان .. بجاذبية المحبة ونور المعرفة، يتحول الجسم البشري " الصغير الممدود المقيد الدليل العاجز الضعيف، من جزء إلى كلي، وإلى كل نوراني ". وبالحياء التي يمنحه الله إياها يتحول إلى " الكلية الحقيقية .. ثم إلى الكلية النورانية السامية، فالنور المحيط الشامل " (11).

والخصيصة الجمالية يتحتم أن تنطوي على بعد أخلاقي، أو ضابط أخلاقي بعبارة أدق، خشية أن تقود الإنسان إلى العجب والغرور، ويبقى صمام الأمان الذي يحمي النفس البشرية من انزلاق كهذا، ألا تنسب الخير إلى ذاتها، وألا يرى الإنسان في نفسه إلا القصور والنقص والعجز والفقير، وأن يرى - في المقابل - كل محاسنه وكمالاته إحساناً من فطره الجليل، ويتقبلها نعماً منه سبحانه، فيشكر عندئذ بدل الفخر، ويحمد بدل المدح والمباهاة (12). هذا الإحساس الذي يغدو بمرور الوقت محفزاً لطلب الكمال بدلاً من الاستسلام للمستوى الواطئ والقعود في منتصف الطريق : " أن تعلم بأن كمالها في عدم كمالها، وقدرتها في عجزها، وغناها في فقرها " (13).

وما من ملمح في تكوين الإنسان، ما من خصيصة في صنعته، إلا ويجد فيها النورسي الدلالة المؤكدة على حكمة الله في الخلق، وإبداعه، وتوحيده : " تأمل في العلامات الفارقة الموجودة في وجه كل إنسان، تلك العلامات التي تميزه عن كل واحد من أبناء جنسه، وأمعن النظر فيما أودع فيه لحكمة بديعة من حواس ظاهرة ومشاعر باطنة، ألا

يثبت ذلك أن هذا الوجه الصغير آية ساطعة للأحدية؟ فكما أن كل وجه يدل - بمئات الدلائل - على وجود صانع حكيم، ويشهد على وحدانيته، فمجموع الأوجه أيضاً، وفي الأحياء كافة، تبين للبصيرة النافذة أنها آية كبرى جليلة للخالق الواحد الأحد<sup>(14)</sup>.

إن من يعجز عن الهيمنة على السماوات كلها - يقول النورسي - يعجز عن رسم خطوط سيماء الإنسان. أي أن من لم يكن رباً لما في السماوات والأرض لا يستطيع أن يخط ملامح وجه الإنسان ويضع عليه علاماته الفارقة<sup>(15)</sup>.

يستشهد النورسي بالآيتين الكریمتین : ( الله خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل . له مقاليد السماوات والأرض .. ) ( الزمر 62 - 63 ) ويخلص إلى القول : " فمن لا يستطيع رؤية هذه الحروف البارزة العظيمة المسطرة على صحيفة الكائنات، فما هو إلا واحد من ثلاثة : إما فاقد عقله، أو فاقد قلبه، أو آدمي الصورة أنعمي التطلعات<sup>(16)</sup> .

### [ 3 ]

إن هذا ينقلنا إلى المساحة التي يعطيها النورسي للجماليات الحسيّة، وهي ليست وجهاً واحداً ولا حالة بسيطة، وإنما أوجه شتى وحالة مركبة لأنها تنطوي على طرفين : الإنسان والعالم، حيث تصير الحواس وسيلة أو جسراً للتواصل بينهما، وحيث تغدو صيغ التوظيف الحسي - عبر هذا التواصل - أداة للتحقق بوتائر الجمال العليا، أو الانحدار صوب القبح والنفور .. فالعين - مثلاً - حاسة " تطل الروح منها على هذا العالم، فإن لم تستعملها في سبيل الله، واستعملتها لأجل النفس والهوى، فإنها بمشاهدتها بعض المناظر الجميلة المؤقتة الزائلة، تصبح في درك الخادمة والسمسارة الدنيئة لإثارة شهوات النفس والهوى. ولكن إن بعثها إلى خالتها البصير واستعملتها فيما يرضيه، عندئذ تكون العين مطالعة لكتاب الكون الكبير هذا وقارئة له، ومشاهدة لمعجزات الصنعة الربانية في الوجود، وكأنها نحلة بين أزاهير الرحمة الإلهية في بستان الأرض، فتقطر من شهد العبرة والمعرفة والمحبة نور الشهادة إلى القلب المؤمن<sup>(17)</sup> .

وثمة مثل آخر من عالم الحسّ : الذوق .. فأنت إن لم تمحّض حاسة الذوق لفاطرها الحكيم واستعملتها لأجل المعدة والنفس " فحينئذ تهوي إلى درك بواب معمل المعدة

واصطبليها، فتهبط قيمتها. ولكن إن بعثها إلى الرزاق الكريم فإنها ترقى إلى درجة ناظر ماهر لخزائن الرحمة الإلهية<sup>(18)</sup>.

وما يلبث النورسي أن يرفع هذا النداء إلى حواس الإنسان: "يا أيتها العين! ابصري جيداً، أين السمسة الدنيئة من الإمعان في المكتبة الإلهية؟ ويا أيها اللسان ذق بجلاوة فأين بواب المعمل والاصطبل من ناظر خزينة الرحمة الإلهية؟ فإن شئت - يا أخي - فقس بقية الأعضاء والحواس على هذا. وعندها تفهم أن المؤمن يكسب حقاً خاصة تليق بالجنة، كما أن الكافر يكتسب ماهية توافق جهنم. فما جوزي كل منهما بهذا الجزاء العادل إلا لأن المؤمن يستعمل بإيمانه أمانة خالقه سبحانه باسمه وضمن دائرة مرضاته، وأن الكافر يخون الأمانة فيستعملها لهواه ولنفسه الأمانة بالسوء"<sup>(19)</sup>.

والنورسي، وهو يتعامل مع الجمال الحسي، ووسائطه، لا ينسى أن يؤكد على الفارق النوعي الحاسم بينه في الإنسان وفي الخلائق الأدنى مرتبة.. وعلى المساحة الواسعة التي أتيحت له في الأولى، والمدى الضيق الذي انحسر فيه في الثانية.. وهو يتساءل مثلاً: "أين عين الإنسان التي تميز جميع مراتب الحسن والجمال؟ وأين حاسته الذوقية التي تميز بين مختلف الأطعمة بلذائذها الخاصة.. مما هي في الآلات الحيوانية البسيطة التي قد لا تنكشف إلا لحدّ مرتبتين أو ثلاث؟"<sup>(20)</sup> والسرّ في وفرة الأجهزة التي منحت للإنسان، وغناها، يكمن كما يرى النورسي "في أن حواس الإنسان ومشاعره قد اكتسبت قوة ونماء وانكشافاً وانسباً أكثر، لما يملك من الفكر والعقل، فقد تباين كثيراً مدى استقطاب حواسه نظراً لتباين وكثرة احتياجاته". وبسبب من "كثرة وظائفه الفطرية فقد انفرجت أجهزته وتوسّعت". وهذه القدرات المضافة لم تعط الإنسان عبثاً، وإنما من أجل "أن يفني بوظائفه المتطلعة إلى مقاصد لا نهاية لها.. وأن يرى بنظره الواسع تسبيحات الموجودات.. وأن يعاين معجزات القدرة الربانية في هذه المصنوعات فيتفكر فيها ويتأمل وينظر إليها نظرة العبرة والإعجاب"<sup>(21)</sup>.

والحواس لا تعمل في الفراغ.. ولا بدّ لها من موضوع جميل تنصبّ عليه وتتعامل معه.. لقد وهبنا الله سبحانه حياة حساسة، يقول النورسي، فهي كالمعدة تطلب رزقاً لها،

ومن أجل ذلك وضع أمام حواسنا من عين وأذن - وهي كالأيدي - مائدة نعمة واسعة سعة سطح الأرض<sup>(22)</sup>.

والمسألة في بدئها ومنتهاها، وهي هنا في دائرة الحسّ كما هي هناك في مجالات العقل والقلب والروح والوجدان : منحة الألوهية الجليلة، والرحمة الجميلة، والربوبية الكبيرة، والرفقة الكريمة، والقدرة العظيمة، والحكمة اللطيفة .. " لقد زين الله سبحانه هذا الإنسان الصغير بحواس ومشاعر كثيرة جداً، وجملته بجوارح وأجهزة وأعضاء مختلفة عديدة، ليُشعره طبقات رحمته الواسعة، ويذيقه أنواع آلائه التي لا تعد، ويعرفه أقسام احساناته التي لا تحصى، ويُطلعه عبر تلك الأجهزة والأعضاء الكثيرة على أنواع تجلياته التي لا تحُدُّ لألف اسم واسم من أسمائه الحسنى، ويجببها إليه، ويجعله يحسن تقديرها حق قدرها " (23).

والنورسي يرى كيف أن لكل عضو من تلك الأعضاء الكثيرة ولكل جهاز وآلة منها وظائفها المتنوعة، وعبادتها المتباينة، كما أن لها لذائذها وآلامها. ثم يضرب مثلاً بالعين والأذن والشم والذوق. فالعين " تشاهد الجمال في الصور، وترى معجزات القدرة الإلهية الجميلة في عالم الشهود، فتؤدي وظيفتها بتقديم الشكر لله من خلال نظرتها ذات العبرة. ولا يخفى على أحد مدى ما في الرؤية من لذة وما يحصل من زوالها من ألم .. والأذن تشعر بلطائف الرحمة الإلهية السارية في عالم المسموعات، بسمعتها أنواع الأصوات ونغماتها اللطيفة المختلفة .. وحاسة الشم تشعر بلطائف الرحمة الإلهية الفوَّاحة من شذى أنواع العطور والروائح .. وحاسة الذوق تؤدي وظيفتها وتقدم شكرها المعنوي بأنماط شتى من خلال إدراكها مذاقات أنواع الأطعمة ولذائذها " (24).

وهكذا " فلكل جهاز من أجهزة الإنسان ولكل حاسة وجارحة .. وظائفها المختلفة ولذائذها المتنوعة الخاصة بها، ومما لا ريب فيه أن الخالق الحكيم الذي سخَّر هذه الأجهزة لتلك الوظائف سيحزري كلا منها ما يلائمها ويستحقها من جزاء " (25).

وهكذا أيضاً، فإن التعامل الحسّي مع معطيات العالم وجمالياته، كما أنه يشبع في الكينونة البشرية حاجاتها الأساسية المركوزة في جبلتها، فإنه يضعها في الوقت نفسه قبالة خيار حرّ في صيغ هذا التعامل وأنماطه، بل حتى في درجاته .. وسيتربّب على هذا، وفق

نواميس الحق والعدل الإلهيين، الجزاء المناسب تماماً لجنس العمل، في الأرض وفي السماء .. في الحياة الدنيا وفي الآخرة على السواء.

وطالما أشار النورسي إلى فريقين من الناس : أهل الإيمان " الذين يتعلمون على مائدة القرآن الكريم الذي يفسر آيات كتاب الكون " وأهل " الكفر والطغيان الصمّ البكم الضالون الذين اتبعوا أهواءهم والشيطان، فما عرفوا من الحياة إلاّ ظاهرها، فهم كالأنعام بل هم أضل سبيلاً " (26). وطالما أشار إلى نمطين أو طبقتين من الحواس " ظاهرة وباطنة " (27) وأن المؤمن الحق هو الذي يستنفر النمطين معاً في تعامله مع الكون والعالم والحياة، من أجل الإيغال أكثر في اكتشاف جمالياتها، والتقرب أكثر إلى الله جلّ في علاه .. من خلال ابداعيته المدهشة في الكون والخلائق " نعم، إن الإنسان لم يوهب راس مال العمر، ولم يودع فيه أجهزة إنسانية راقية إلاّ ليؤهله ذلك على تأدية الوظائف الجليلة " (28) ويتساءل النورسي :

" أتحسبون أن مهمة حياتكم محصورة في تلبية متطلبات النفس الأمارة بالسوء ورعايتها بوسائل الحضارة إشباعاً لشهوة البطن والفرج ؟ أم تظنون أن الغاية من درج ما أودع فيكم من لطائف معنوية رقيقة، وآلات وأعضاء حساسة، وجوارح وأجهزة بديعة، ومشاعر وحواس متحسّسة، إنما هي مجرد استعمالها لإشباع حاجات سفلية لرغبات النفس الدنيئة في هذه الحياة الفانية ؟ " ثم ما يلبث أن يجيب : " كلا، بل أن خلق تلك اللطائف والحواس والمشاعر في وجودكم وإدراجها في فطرتكم إنما يستند إلى أساسيين اثنين : أولهما أن تجعلكم تستشعرون بالشكر تجاه كل نوع من أنواع النعم التي أسبغها عليكم المنعم سبحانه. أي عليكم الشعور بها والقيام بشكره تعالى وعبادته. وثانيهما أن تجعلكم تعرفون أقسام تجليات الأسماء الحسنى التي تعمّ الوجود كلّ، معرفتها وتدوقها فرداً فرداً. أي عليكم الإيمان بتلك الأسماء ومعرفتها معرفة ذوقية خالصة. وعلى هذين الأساسين تنمو الكمالات الإنسانية وبهما يغدو الإنسان إنساناً حقاً " (29).

#### [ 4 ]

بعد جماليات الصنعة والحسّ ودلالتهما، تجيء جماليات الروح والنفس والوجدان .. حيث فرش النورسي المساحات الواسعة في ( كلماته ) لهذا البعد الذي يتمثل فيه جوهر

الجمال الإنساني وبلوره المصطفى .. " السعيد يبصر الحقيقة، والحقيقة بذاتها جميلة " (30). ويرسم النورسي مدرجاً يصعد فيه عشاق الجمال الرباني في الوجود وصولاً إلى " جمال الفاطر الجليل والصانع الجميل " .. خطوة خطوة، ودرجة درجة .. والبداية دائماً هناك : التعامل بمحبة وشغف وانبهار مع " الآثار الربانية المثبوتة في الكون " .. ثم تبدأ رحلة الصعود في المراقي.

" أولاً: بمشاهدتهم تلك الآثار وجدوا أنفسهم في مقام المشاهدين محاسن عظمة الربوبية، بمعاملة غيائية، فأدوا وظيفة التكبير والتسييح قائلين : الله أكبر.

" ثانياً: وبظهورهم في مقام الدعاة والادلاء إلى بدائع صنائعه سبحانه وآثاره الساطعة التي هي جلوات أسمائه الحسنی، أدوا وظيفة التقديس والتمجيد بقولهم : سبحان الله والحمد لله.

" ثالثاً: وفي مقام إدراك النعم المدخرة في خزائن الرحمة الإلهية، وتذوقها بجواس ظاهرة وباطنة، شرعوا بوظيفة الشكر والحمد.

" رابعاً: وفي مقام معرفة جواهر كنوز الأسماء الحسنی وتقديرها حق قدرها بموازين الأجهزة المعنوية المودعة فيهم، بدأوا بوظيفة التنزيه والثناء.

" خامساً: وفي مقام مطالعة الرسائل الربانية المسطرة بقلم قدرته تعالى على صحيفة القدر، باشروا بوظيفة التفكير والإعجاب والاستحسان.

" سادساً: وفي مقام التنزيه بإمتاع النظر إلى دقة اللطف في خلق الأشياء ودقة الجمال في إتقانها، دخلوا وظيفة المحبة والشوق إلى جمال الفاطر الجليل والصانع الجميل " (31).

إن جميع ما في الوجود والحياة يبدو - في الرؤية النورسية - وكأنه مرايا شبه شفافة لإظهار جمال القدوس الجليل الذي تحيط صفاته بكل شيء .. وما على الإنسان إذا أراد فعلاً أن يتمحّض لهذا الجمال، إلا أن يتجرّد عن قيوده، أن يتحرّر منها، وأن يقطع المراتب الطوال، ويعلو، مستمداً من قوة قلبه، وعلو عقله، القدرة على التجاوز والصعود (32).

إن الإنسان " محبوس في المادة " فإذا أراد الاقتراب فإن عليه أن " يتجرد عن كثير جداً من القيود " وأن يمضي " عبر مراتب كلية كثيرة جداً " (33). ولا بدّ أنه سيصل ما دام قد أحلص النية وثمر عن مساعد الجسد.

المفتاح دائماً في المجاهدة التي تخلص نيتها لله، وحينذاك يمكن أن " تولّد قراءة آية واحدة، أو ذكر معين، شفافية في الروح - كالزجاج - تستطيع أن تستوعب ثواباً نورانياً كالسماوات الواسعة " (34).

وطالما شبّه النورسي الحياة الدنيا بمهرجان مترع باللذائذ الحسية والروحية، ودعا الإنسان إلى المشاركة في الاحتفال الكبير والتواصل مع بحجته ولذائذه ووعوده : " الآلاء المختلفة والنعم المتنوعة التي لا تعد ولا تحصى، والمبتوثة في ذلك العيد البهيج، والمعروضة في ذلك المهرجان العظيم " (35). ومع ذلك فهذا ليس سوى أحد وجهي الحقيقة. والنورسي دائماً يمضي للبحث عن الوجه الآخر، وتأكيد، وجعله حاضراً في الحسّ والعقل والروح والوجدان. وهكذا فإن " الدنيا مع جميع مباحجها في حكم سجن ضيق بالنسبة لسعة الآخرة وجمالها " ومن ثم يصير " الخروج من سجن الدنيا والنجاة من ضيقها إلى بستان الجنان الآخروية، والانتقال من منعصات الحياة المادية إلى عالم الراحة والطمأنينة، وطيران الأرواح، والانسلاخ من ضحيج المخلوقات وصخبها إلى الحضرة الربانية الهادئة المطمئنة " يصير هذا كله " سياحة بل سعادة مطلوبة بألف فداء وفداء " (36).

والنورسي، من أجل تحرير الإنسان من التعلّق بالأسباب، هذه التي تجرح دائماً " قلب الإنسان المسكين " بسبب تأكلها ودمارها .. يطلب منه أن يردّ عشقه للجمال إلى بارئه الحقيقي، وأن يحبّ الأشياء الجميلة باسمه، دون خوف أو قلق من التآكل والضياع .. إنه سبحانه " صاحب كمال وجمال لا نهاية لهما " .. والتعلّق به، والتشبث برحمته، يعصمان الإنسان من الهم والحزن والخوف. ومن ثم يجأر النورسي بهذا النداء : " يا نفسي .. ينبغي ألاّ تصرفي المحبة مباشرة إلى الكائنات، وإلا انقلبت المحبة، إلى نقمة أليمة بعد أن كانت نعمة لذيذة .. يا نفسي إن كنت تعقلين فاجمعي إذن جميع أنواع تلك المحبة وسلميتها إلى صاحبها الحقيقي وانجي من هذه البالاي " (37).

فهو - إذن - الاستمداد من مصدر الجمال الدائم الذي لا يتناقص ولا يزول ..

والتعامل مع النبع الذي تفيض منه كل القيم الجمالية في هذا العالم. كما أنه يطلب من الإنسان، وهو يتعامل مع جماليات الأنثى، أن يفك ارتباطه " بالجمال الظاهري السريع الزوال " وأن يمحض محبته للجمال " الذي لا يزول ويزداد تألقاً يوماً بعد يوم، وهو جمال الأخلاق والسيرة الطيبة المنغزة في أنوثة المرأة ورقتها ". إذ أن أحلى ما فيها من جمال وأسماء هو " في شفقتها الخالصة النورانية. فجمال الشفقة وحسن السيرة يدومان ويزدادان إلى نهاية العمر، ومحبتهم تصان حقوق هذه المخلوقة اللطيفة .. وإلا تفقد حقوقها في وقت هي أحوج ما تكون إليها بزوال الجمال الظاهري "(38).

## [ 5 ]

وقد ينطوي الجمال في المنظور النورسي على بعده الأخلاقي .. بعده الإنساني .. ولا ينسلخ عنهما كما هو الحال في المعطيات الغربية على مرّ العصور، حيث يصير الجمال البشري وسيلة حسّية صرفة لتحقيق اللذة، أو أداة منفعية خالصة لتحقيق المصلحة.

وإذا كان النورسي يرفض الأخذ بالمنهج الأحادي، أو الرؤية المحدودة، في التعامل مع الظواهر والأشياء، فإنه هنا في تقويمه لجماليات الإنسان، لا ينسى أن يدير المنظور في الاتجاهات كافة، لكي يبيّن أن الأمر ليس سواء، وأن الإنسان نفسه، لهذا السبب أو ذلك، قد يتنازل عن مواقع الجمال العالي باتجاه التنافر والقيح والدمامة، وأن ثمة حالات عديدة يتقلب فيها الإنسان بين القطبين بسبب من طبيعة ممارساته وصيغ تعامله مع الحقائق والموجودات والظواهر والأشياء.

ويضرب النورسي على ذلك مثلاً برجل مبارك يملك عقلاً رشيداً، فهو يقطع الطريق إلى هدفه دون أن يعاني الضيق كأخيه " ذلك أنه لا يفكر إلا في الأشياء الجميلة - لما له من جمال الخلق - ولا يأخذ بعنان الخيال إلا بما هو جميل ولطيف .. إنه يعرف النظام، ويعمل بمقتضى الولاء والاتباع .. فيمضي منطلقاً مستظلاً بالأمان والاستقرار. وهكذا مضى حتى وجد بستاناً فيه أزهار جميلة وفواكه لطيفة مع ثمة جثث حيوانات وأشياء منتنة مبعثرة هنا وهناك بسبب إهمال النظافة. كان أخوه الشقي قد دخل - من قبل - في مثل هذا البستان أيضاً غير أنه انشغل بمشاهدة الجيف الميتة وإنعام النظر فيها مما أشعره بالغثيان والدوار، فغادره دون أن يأخذ قسطاً من الراحة لمواصلة السير .. أما هذا الأخ

فعمل بقاعدة ( أنظر إلى الأحسن من كل شيء ) فقد أهمل الجيف، ولم يلتفت إليها مطلقاً .. وبعدها استراح مضى إلى سبيله "(39).

والحك دائماً هو الإيمان والكفر .. الإيمان الذي يسمو بالإنسان إلى أعلى عليين " فيكتسب بذلك قيمة تجعله لائقاً بالجنة، بينما يتردى بظلمة الكفر أسفل سافلين، فيكون في وضع يؤهله لنار جهنم "(40). ويزيد النورسي المسألة إيضاحاً فيقول " إن الإيمان يربط الإنسان بصانعه الجليل .. والإيمان انتساب، لذا يكتسب الإنسان بالإيمان قيمة سامية من حيث تجلّي الصنعة الإلهية فيه، وظهور آيات نقوش الأسماء الربانية على صفحة وجوده. أما الكفر فيقطع ذلك الانتساب، وتغشى ظلمته الصنعة الربانية وتطمس على معالمها، فتنتقص قيمة الإنسان حيث تنحصر في مادته فحسب، وقيمة المادة لا يعتد بها فهي في حكم المعدم لكونها فانية زائلة، وحياتها حياة حيوانية مؤقتة "(41).

وهكذا فإن الإيمان " يجعل الإنسان إنساناً حقاً، بل يجعله سلطاناً .. بينما الكفر يجعل الإنسان حيواناً عاجزاً "(42). ويمضي النورسي في متابعة الدور الذي يمارسه الإيمان في الارتفاع بالإنسان إلى المكانة التي تليق به " لقد جيء بالإنسان إلى هذا العالم لأجل أن يتكامل بالمعرفة والدعاء، لأن كل شيء فيه موجه إلى العلم ومتعلق بالمعرفة حسب الماهية والاستعداد. فأساس كل العلوم الحقيقية ومعدنها ونورها وروحها هو ( معرفة الله تعالى ) كما أن أسس هذا الأساس هو ( الإيمان بالله جل وعلا ). وحيث إن الإنسان متعرض لما لا يحصى من أنواع البلايا والمصائب لما يحمل من عجز، وله مطالب كثيرة وحاجات عديدة مع أنه في فقر مدقع لا نهاية له، لذا تكون وظيفته الفطرية الأساس (الدعاء) بعد الإيمان، وهو أساس العبادة ونهجها .. "(43).

وكعادته، فإن النورسي يرفع نداءه في مواجهة الإنسان منبهاً إياه أنه على مفترق طريقين، فإما الاستقامة والقدرة والإبداع والعطاء واحتلال الموقع العالي المرموق الذي يليق بمكانة الإنسان، هذا الكائن الفريد، وإما الالتواء والعجز والانحدار إلى مظان الضعف والقيح والشر والتخريب : " فإيا أيها الإنسان، إذا آمنت بالله وحده، وأصبحت عبداً له وحده، فزت بموقع مرموق فوق جميع المخلوقات، أما إذا استنكفت من العبودية وتجاهلتها فسوف تكون عبداً ذليلاً أمام المخلوقات العاجزة .. ولسوف تكون اضعف

من النملة والنحلة من جهة الخير والإيجاد بل أضعف من الذبابة والعنكبوت، وستكون أثقل من الجبل وأضرّ من الطاعون من جهة الشرّ والتخريب" (44). بل إنه قد يوغل في اتجاه الإفساد والتشويه فيقحم " المصادفة والعشبية والضلالة " في كل شيء جميل في هذا العالم. الذي خلقه الله سبحانه في أحسن صورة، وأكمل نظام، ووجهه إلى أحسن وجهة، ووظفه بأحسن وظيفة .. فيشوّه جماله " بعمله القبيح " وينقلب بهذا إلى درك " القبح والدمامة" (45).

ويشبه النورسي الإنسان في هذا العالم بالبذرة. فلقد وهبت هذه أجهزة معنوية من لدن ( القدرة ) وأدرجت فيها خطة دقيقة ومهمة جداً من لدن ( القدر ) لتتمكن من العمل داخل التربة، ومن النمو والترعرع والانتقال من ذلك العالم المظلم الضيق إلى عالم الهواء الطليق والدنيا الفسيحة، وأخيراً التوسّل والتصرّع لخالفها بلسان الاستعداد والقابليات لكي تصير شجرة والوصول إلى الكمال اللائق بها. فإذا قامت هذه البذرة بجلب الموادّ المضرة بها، وصرفت أجهزتها المعنوية التي وهبت لها إلى تلك المواد التي لا تعنيها بشيء، وذلك لسوء مزاجها وفساد ذوقها، فلاشك أن العاقبة تكون وخيمة جداً، إذ لا تلبث أن تتعفن دون فائدة وتبلى في ذلك المكان الضيق. أما إذا أخضعت أجهزتها المعنوية لتمثل أمر ( فالق الحب والنوى ) ( الأنعام 95 ) التكويني وأحسن استعمالها، فإنها ستنتق من عالمها الضيق لتكتمل شجرة مثمرة، باسقة ولتأخذ حقيقتها الجزئية وروحها المعنوية الصغيرة صورتها الحقيقية الكلية الكبيرة (46).

وهكذا، فإن بمقدور الإنسان إذا عرف كيف يرّبي استعداداته بالتعاليم الإيمانية، أن يغدو " آلة نفيسة ذات رونق وجمال، وثمره مباركة منورة لشجرة الكون" (47).

والسموّ الحقيقي إنما يتمّ بتوجيه سائر قدرات الإنسان وقوى الدفع فيه إلى أعلى : القلب والسرّ والروح والعقل وحتى الخيال .. وجعل كل منها تشتغل بما يخصّها ويناسبها من وظائف العبودية. أما ما يتوهّمه من الانغماس في تفاهات الحياة، والتلذذ بملذّاتها الهابطة والانكباب على جزئيات لذاتها الفانية، دون الالتفات إلى جمال الكليات ولذاتها الباقية الخالدة، مسخرين القلب والعقل وسائر اللطائف الإنسانية تحت إمرة النفس الأمارة بالسوء، وتسييرها جميعاً لخدمتها، فإن هذا لا يعني رقباً قط، بل هو سقوط وهبوط وانحطاط (48).

لقد خلُق الإنسان ( في أحسن تقويم ) لكنه إذا حصر فكره في الحياة الدنيا وحدها فسيهبط ويتضع ويصبح اقل شأنًا بمائة درجة من حيوان كالعصفور، وإن كان أسمى وأتم من الحيوان من حيث رأسماله بمائة درجة!!<sup>(49)</sup>.

يعود النورسي لكي يؤكد مرة ومرتين وثلاثاً : أن الإنسان يملك الاستعداد للهبوط إلى الدرك الأسفل، والصعود في المراقي، والتحقق بالصيغة المثلى للإنسان في أكثر حالاته اكتمالاً وجمالاً .. "نعم أيها الإنسان ! إنك من جهة جسمك النباتي ونفسك الحيوانية جزء صغير .. ومخلوق فقير، وحيوان ضعيف، تخوض في الأمواج الهادرة لهذه الموجودات المتزاحمة المدهشة. إلا أنك من حيث إنسانيتك المتكاملة بالتربية الإسلامية، المنورة بنور الإيمان، المتضمن لضياء الحجة الإلهية، سلطان في هذه العبدية، وانك كلي في جزئيتك، وانك عالم واسع في صغرك، ولك المقام السامي مع حقارتك فأنت المشرف ذو البصيرة النيرة على هذه الدائرة الفسيحة المنظورة حتى يمكنك القول : إن ربي الرحيم قد جعل لي الدنيا مأوى ومسكناً، وجعل لي الشمس والقمر سراجاً ونوراً، وجعل لي الربيع باقة ورد زاهية، وجعل لي الصيف مائدة نعمة، وجعل لي الحيوان خادماً ذليلاً، وأخيراً جعل لي النبات زينة وأثاثاً وبهجة لداري وسكني"<sup>(50)</sup>.

فبالعبادة والتفكير يصبح الإنسان إنساناً حقاً، ويظهر نفسه أنه ( في أحسن تقويم ) فيصير يُمن الإيمان وبركته لائقاً للأمانة الكبرى وخليفة أميناً على الأرض<sup>(51)</sup>.

## [ 6 ]

وثمة الوجه أو البعد الأخلاقي للمسألة الجمالية بقدر ارتباطها بالإنسان ودوره في العالم .. إنها قضية الخير والشرّ .. الخير باعتباره جماع القيم النبيلة الجميلة في الممارسة البشرية، وعلاقة الإنسان بالعالم وقطب الرحي فيها .. والشرّ باعتباره جماع القيم السافلة القبيحة.

والنورسي يقف طويلاً عند هذه المسألة فلا يكاد يترك فيها جانباً يثير تساؤلاً أو إشكالاً، إلا وعرضه، وفق منهجه في الكشف والتحليل، للضوء، وقال كلمته المقنعة فيه. وهو ينطلق - ابتداءً - من حقيقة أن كل شيء في الوجود، حتى ما يبدو أنه أفتح شيء، فيه جهة حسن حقيقية، فما من شيء في الكون، وما من حادث يقع فيه إلا وهو جميل

بذاته، أو جميل بغيره، أي جميل بنتائجه التي يفضي إليها. فهناك من الحوادث التي يبدو في ظاهر أمرها قبيحاً مضطرباً ومشوشاً، إلا أن تحت ذلك الستار الظاهري أنواعاً من جمال رائع، وأنماطاً من نظم دقيقة<sup>(52)</sup>.

إن الرؤية النسبية القاصرة، القلقة، الموقوتة، المنفعلة، للإنسان، هي التي تستعجل الأحكام على الحوادث والأشياء، فتسم بالقبح والبشاعة ما هو - في نهاية الأمر - حسن جميل .. والعبرة بالنتائج، والحدث أو الظاهرة، لا يعملان منفردين، ومعزل عن مجمل الظواهر والأحداث، إنما هما جزئيتان في شبكة من المعطيات والمفردات. وما يتمخض عن تشكيلهما لا يحكم عليه منفرداً وإنما من خلال طبيعة ارتباطاته بالشبكة كلها .. وبالتالي من خلال النتائج النهائية التي تترتب على الحدث، وهي نتائج طالما تغيرت في المنظور النهائي، وبالإحالة على الحسن والقبيح عما كانت عليه في لحظات صيرورتها الأولى .. " فتحت حجاب الطين والغبار والعواصف والأمطار الغزيرة في الربيع تحببى ابتسامات الأزهار الزاهية بروعتها، وتحتجب رشاقة النباتات الهيفاء الساحرة الجميلة. وفي ثنايا العواصف الخريفية المدمرة، المكتسحة للأشجار والنباتات، والهابة للأوراق الخضراء من فوق الأفنان، حاملة نذر البين وعازفة لحن الشجن والموت والانذار، هناك بشارة الانطلاق من أسر العمل لملايين الحشرات الرقيقة الضعيفة، التي تفتتح للحياة في أوان تفتح الأزهار، فتحافظ عليها من قرّ الشتاء وضغوط طقسه، فضلاً عن أن أنواء الشتاء القاسية الحزينة تهيب الأرض استعداداً لمقدم الربيع بمواكبه الجميلة الرائعة. نعم ! إن هناك تفتحاً لأزهار معنوية كثيرة تحببى تحت ستار عصف العواصف إذا عصفت، وزلزلة الأرض إذا تزلزلت، وانتشار الأمراض والأوبئة إذا انتشرت "<sup>(53)</sup>.

ويرى النورسي أن بذور القابليات ونوى الاستعدادات الكامنة - التي لم تنبت بعد - تتسبب وتتجمل نتيجة حوادث تبدو قبيحة في ظاهر شأنها، بيد أن الإنسان المفتون بالمظاهر، والمتشبهت بها، والذي لا ينظر إلى الأمور والأحداث إلا من خلال أنانيته ومصالحته بالذات، تراه تتوجه أنظاره إلى ظاهر الأمور وتنحصر فيها، فيحكم عليها بالقبح !! وحيث إنه يزن كل شيء بحسب نتائجه المتوجهة إليه فحسب، تراه يحكم عليه بالشر!

ويعبئ النورسي إلى القول بأن الغاية من الأشياء إن كان المتوجه منها إلى الإنسان واحدة، فالمتوجه منها إلى أسماء صانعها الجليل تعد بالألوف. ويضرب على ذلك - كعادته - الأمثال التي تضع قارئه قبالة الوقائع المنظورة المتشكلة أزاءه تماماً، بعيداً عن تجريد الفكر وجفاء الجدل المتنائي عن الحياة.

الأشجار والأعشاب ذات الأشواك التي تدمي يد الإنسان الممتدة إليها يتضايق منها الإنسان ويراهما شيئاً ضاراً لا جدوى منه، بينما هي لتلك الأشجار والأعشاب في منتهى الأهمية حيث تحرسها وتحفظها ممن يريد مسّها بسوء!

انقضاء العقاب على العصافير والطيور الضعيفة وتحفيزها للظهور لا يتحقق إلا إذا أحسست بالخطر المحدق بها وشعرت بقدرة الطيور الجارحة على التسلّط عليها.

هطول الثلوج الذي يغمر الأشياء في فصل الشتاء، ربما يثير بعض الضيق لدى الإنسان، لأنه يحرمه لذة الدفء ومناظر الخضرة، بينما تختفي في قلب هذا الجليد غايات دافئة جداً ونتائج حلوة يعجز الإنسان عن وصفها.

ويخلص النورسي إلى القول بأن " الإنسان من حيث نظره القاصر يحكم على كل شيء بوجهه المتوجّه إلى نفسه، لذا يظن أن كثيراً من الأمور التي هي ضمن دائرة الآداب المحضّة، بما في ذلك الوظيفة الجنسية، مجافية لها، خارجة عنها .. فما نراه قبحاً في بعض المخلوقات، والآلام والأحزان التي تخلفها بعض الأحداث والوقائع اليومية، لا تخلو أعماقها قطعاً من أوجه جميلة، وأهداف خيرة، وغايات سامية، وحكم خبيثة، تتوجه بكل ذلك إلى خالقها الكريم كما قدرّ وهدى وأراد. فالكثير من الأمور التي تبدو في الظاهر - مشوشة مضطربة ومختلطة، إن أنعمت النظر إلى مداخلها طاعتك - من خلالها - كتابات ربانية مقدّسة رائعة، وفي غاية الجمال والانتظام والخير والحكمة"<sup>(54)</sup>.

ولما كانت المسألة في بدئها ومنتهاها ترتبط بالمشيئة الإلهية وحكمتها العليا، أي بما اصطلح على تسميته " بالقدر " فإن النورسي لا يفوته أن يتعامل معها من هذه الزاوية. وهو - كعادته - يفترض اعتراضاً ثم ما يلبث أن يردّ عليه.

لقد أثبت في المبحث الأول من الكلمة السادسة والعشرين<sup>(55)</sup> أن كل ما للقدر جميل وخير، بل حتى الشرّ الآتي منه، فإنه خير، والقبح الوارد منه جميل، فكيف يتلاءم هذا مع

كون المصائب والبلايا التي تنزل في دار الدنيا هذه تجرح هذا الحكم وتقده بهذا الإثبات ؟

وما يلبث أن يجيب : " إن الوجود خير محض والعدم شرّ محض، والدليل هو رجوع جميع المحاسن والكمالات والفضائل إلى الوجود، وكون العدم أساس جميع المعاصي والمصائب والنقائص. ولما كان العدم شرّاً محضاً فالحالات التي تنجرّ إلى العدم أو يشم منها العدم تتضمن الشرّ أيضاً. لذا فالحياة التي هي أسطع نور للوجود، تتقوى بتقلّبها ضمن أحوال مختلفة، وتتصفى بدخولها أوضاعاً متباينة، وتثمر ثمرات مطلوبة باتخاذها كصفات متعددة، وتبين نقوش أسماء واهب الحياة بياناً لطيفاً وجميلاً بتحولها في أطوار متنوعة. وبناء على هذه الحقيقة تتعرض حالات الأحياء في صور الآلام والمصائب والمشقات والبليات فتتجدّد بتلك الحالات أنوار الوجود في حياتهم وتتبعدها عنها ظلمات العدم، وإذا بجياهم تتطهر وتتصفى، ذلك لأن التوقف والسكون والسكوت والعطالة والدعة والرتابة، كل منها عدم في الكيفيات والأحوال، حتى أن أعظم لذة من اللذات تنافس بل تزول في الحالات الرتيبة" (56).

ثم يضرب - كعادته - مثلاً على ذلك : " أن صانعاً ثرياً ماهراً يكلف رجلاً فقيراً لقاء أجرة معينة ليقوم له في ظرف ساعة بدور النموذج ( موديل ) لأجل إظهار آثار صنعته الجميلة وإبراز مدى ثرواته القيّمة، فيلبسه ما نسّجه من حلّة قشبية في غاية الجمال والإبداع، ويجري عليه أعمالاً ويظهر أوضاعاً وأشكالاً شتى لإظهار خوارق صنائعه وبدائع مهاراته، فيقص ويبدّل ويطوّل ويقصّر وهكذا. ترى أيحق لذلك الفقير الأجير أن يقول لذلك الصانع الماهر : إنك تتعبي وترهقي بطلبك مني الانحناء مرة والاعتدال أخرى، وأنتك تشوّه بقصّك وتقصيرك هذا القميص الذي يجملني ويزيني ؟ ترى أيقدر أن يقول له : لقد ظلمت وما أنصفت ؟

" وكذلك الأمر في الصانع الجليل الفاطر الجميل ( والله المثل الأعلى ) إذ يبدّل قميص الوجود الذي ألبسه ذوي الحياة، ويقبله في حالات كثيرة، ذلك القميص المرصّع باللطائف والحواس كالعين والأذن والعقل والقلب وأمثالها، يبدّله ويقبله إظهاراً لنقوش أسمائه الحسنى. ففي الأوضاع التي تتسم بالآلام والمصائب أنوار جمال لطيف تشف عن

أشعة رحمة ضمن لمعان الحكمة الإلهية إظهاراً لأحكام بعض الأسماء الحسنی " (57).

وتعقياً على زلزال قاسٍ ضرب بعض البلاد التركية وألحق بما أذى مادياً ومعنوياً كبيراً، يفترض النورسي هذا السؤال : " لماذا تعم هذه المصيبة البلاد كلها، علماً أنها مصيبة ناجمة عن أخطاء يرتكبها بعض الناس " (58)، " وهل هذا يوافق شمول قدرته وجمال رحمته سبحانه ؟ " (59). ثم ما يلبث أن يجيب : " لقد أعطى التقدير الجليل كل عنصر من العناصر وظائف كثيرة، وينشئ على كل من تلك الوظائف نتائج كثيرة. فلو ظهرت نتيجة واحدة قبيحة - أي شرٌّ ومصيبة وبلاء - من عنصر من العناصر في وظيفة من وظائفه الكثيرة، فإن سائر النتائج المترتبة على ذلك العنصر تجعل هذه النتيجة الوحيدة في حكم الحسن والجميل، لأنها جميلة وحسنة، إذ لو منع ذلك العنصر الغاضب على الإنسان من تلك الوظيفة للحيلولة دون مجيء تلك النتيجة الوحيدة البشعة للوجود، لتركت إذن خيرات كثيرة بعدد النتائج الخيرة المترتبة على سائر وظائف ذلك العنصر. أي تحصل شرور كثيرة بعدد تلك النتائج الخيرة، حيث أن عدم القيام بخير ضروري إنما هو شر كما هو معلوم. كل ذلك للحيلولة دون مجيء شر واحد ! وما هذا إلا منافاة للحكمة. وهو قبح واضح، ومخافة للحقيقة، وقصور مشين، بينما الحكمة والقدرة والحقيقة منزهة عن كل نقص وقصور .. " (60).

والنورسي - بهذا - إنما يفسر الآية الكريمة : ( واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة ) ( الأنفال 25 ) وهي واحدة من أكثر السنن الإلهية ثقلًا وحضوراً في التاريخ البشري وأشدّها ارتباطاً بمسألة الخير والشر، وبأقدار الله سبحانه العاملة في الوجود.

كما أن النورسي لا ينسى - كذلك - أن يتعرّض لمسألة الحسن والقبح، من حيث الجزاء الأخروي .. هل هما في أصل أفعال المكلفين ابتداءً، أي في ذات نفسها ثم يأتي الشرع فيقرر أن هذا حسن وهذا قبيح. أي أن الحسن والقبح أمران ذاتيان موجودان في طبيعة الأشياء، ثم تجيء الأوامر والنواهي تابعة لذلك وإقرارها، كما يرى المعتزلة على سبيل المثال ؟ أم أنها فيما يراه أصحاب الحق - كما يسميهم النورسي - من أهل السنة والجماعة، متعلقة، ابتداءً، بأمر الله سبحانه : يأمر بشيء فيكون حسناً، وينهى عن شيء

فيكون قبيحاً، فبالأمر والنهي يتحقق الحسن والقبح؟<sup>(61)</sup>.

وواضح من سياق الكلام أن النورسي يلتزم رأي أهل السنة والجماعة في مسألة الحسن والقبح هذه .. وأنه يردّ، انطلاقاً من رؤيته الأصيلة في العلاقة بين الخالق والمخلوق، وانسجاماً معها : كل فعل وحكم وأمر ونهي، إلى الله سبحانه ابتداءً .. قبل ومع وبعد تشكّل الحثيات والأسباب لأنه سبحانه صانع الحثيات والأسباب، وإرادته المطلقة غير متحدّدة بما قبل إيجادها وبعده، على السواء.

### الهوامش

- (1) بيدع الزمان سعيد النورسي : الكلمات ، ترجمة إسمان قاسم الصالحي ، الطبعة الأولى ، دار سوزلر ، استانبول — 1992 م ، ص 111.
- (2) نفسه ص 418.
- (3) نفسه ص 349.
- (4) نفسه ص 349.
- (5) نفسه ص 139.
- (6) نفسه ص 582.
- (7) نفسه ص 97.
- (8) نفسه ص 97.
- (9) نفسه ص 204.
- (10) نفسه ص 384.
- (11) نفسه ص 414.
- (12) نفسه ص 560.
- (13) نفسه ص 560.
- (14) نفسه ص 784.
- (15) نفسه ص 822.
- (16) نفسه ص 822.
- (17) نفسه ص 23 — 24.
- (18) نفسه ص 24.
- (19) نفسه ص 24.
- (20) نفسه ص 366.
- (21) نفسه ص 367.
- (22) نفسه ص 414.
- (23) نفسه ص 774.
- (24) نفسه ص 774.
- (25) نفسه ص 774.
- (26) نفسه ص 133.

- (27) نفسه ص 134.  
(28) نفسه ص 136.  
(29) نفسه ص 136 – 137 وينظر: المرجع نفسه ص 225.  
(30) نفسه ص 35.  
(31) نفسه ص 134.  
(32) ينظر: المرجع نفسه ص 211 – 214.  
(33) نفسه ص 217.  
(34) نفسه ص 400.  
(35) نفسه ص 222.  
(36) نفسه ص 224.  
(37) نفسه ص 412.  
(38) نفسه ص 765 وينظر: المرجع نفسه ص 771.  
(39) نفسه ص 33.  
(40) نفسه ص 348.  
(41) نفسه ص 348. وللمزيد من التفاصيل عن هذه المسألة ينظر: المرجع نفسه ص 348 – 350.  
(42) نفسه ص 354.  
(43) نفسه ص 355.  
(44) نفسه ص 360. وللمزيد من التفاصيل ينظر: المرجع نفسه ص 360 – 361.  
(45) ينظر: المرجع نفسه ص 409 – 410.  
(46) نفسه ص 362.  
(47) نفسه ص 363.  
(48) نفسه ص 363. وللمزيد من التفاصيل عن هذه المسألة ينظر: المرجع نفسه ص 363 – 366.  
(49) نفسه ص 366.  
(50) نفسه ص 371.  
(51) نفسه ص 373.  
(52) نفسه ص 249 – 250.  
(53) نفسه ص 250.  
(54) نفسه ص 250 – 251.  
(55) نفسه ص 541 – 545.  
(56) نفسه ص 553.  
(57) نفسه ص 553 – 554.  
(58) نفسه ص 196.  
(59) نفسه ص 197.  
(60) نفسه ص 197.  
(61) نفسه ص 306.